الأيام

Sunday 20/10/96 Issue No. 296 Volume 1

الأحد ٢٠/١٠/١٩٩٦م الموافق ٨جمادى الثانية ١٤١٧هـ، العدد ٢٩٦، السنة الأولى

دفاتر الأيام

سري نسيبة
«الحرية بين الحد والمطلق»

بقلم :عزت الغزاوي

لست أدري إن كان الشاعر العربي أدونيس قد إطلع على كتاب سري نسيبة الجديد «الحرية بين الحد والمطلق» على أن المهم في الأمر مقولة الوضع الخاص للفلسطينيين والذي يؤهلهم تماماً كي يكونوا بوابة أمنة لمستقبل الحرية الفردية والجماعية في العالم العربي هي مقولة يؤمن بها كلٌ منهما رغم أنهما لا يخفيان نوعاً من القلق إزاء احتمالات المستقبل وقدرة الفلسطينيين على الامساك باللحظة النفسية القوية هذه حتى تحدث التحولات المطلوبة بالنسبة لمستقبل الحرية في الشرق عموماً وفي الوطن العربي خاصة. ففي كلمات سري نسيبة «اننا نبدأ من وضع يشعر فيه كل مواطن أنه صاحب حق كغيره، وأن الحق السيادي هذا ينبع من عنده، وهو ليس أمراً مخزوناً لدى سلطة أو قيادة أو حكومة أو نظام يتصدق به على المواطن كيفما يشاء». (١٤٣). وبكلمات أدونيس في مؤتمر بروكسل الدولي «انكم - أي الفلسطينيون - آخر مخزون لحرية المثقف، وأن أية مخاطرة بهذا الدور ستضعنا جميعاً أمام مائة عام أخرى من النضال من أجل الحرية»!؟

وبالطبع، فيما عدا مشاركتي للكاتبين الإيمان ذاته، سيصعب عليّ تحديد لماذا اخترت هذه البداية للتحدث باختصار شديد عن كتاب سري نسيبة «الحرية بين الحد والمطلق» الذي لا تغني عن قراءته أية مراجعات مهما كانت دقيقة. الكتاب أولاً يأتي مبادرة واسهاما من الكاتب في إثراء الحالة الثقافية في فلسطين، وله السبق في أنه أول كتاب من نوعه يصدر محلياً حول موضوعة الحرية الفردية والاجتماعية في ظروف دقيقة تتزايد فيها الاسئلة حول طبيعة انحيازنا كشعب - ونحن نؤهل أنفسنا للاستقلال - وفيما إذا كنا سنختار شعلة بروميثوس أم سنرضى بالقدر المحيط بنا حيث تغنى الذات في المجموع أو تغنى الذات في النظام.

والكتاب يختار طريقة فلسفية - جدلية ذات خلفية سياسية تُخضع النظرية للتطبيق في طرح فكرة الحرية في موازينها المختلفة وفي مقابلة مع باقي القيم الاخلاقية (الحق والخير) بحيث يبدو واضحاً في هيكلية الكتاب أن الجزء النظري منه جاء ليقدم الجزء التطبيقي الذي هو في حقيقة الامر استنتاجات لوقفة متأنية وطويلة مع صراع الشعب الفلسطيني من أجل البقاء. لقد كان من شأن هذا الصراع (الذي اتصف لفترة طويلة بالدموية وربما تطول هذه الفترة) أن يضع الفلسطيني في إشكالية حقيقة قامته الانسانية على وجه الارض حين يتطلب الامر المقارنة مع الاخر أو حين يتطلب الأمر تحديداً دقيقاً لمعاني مجردة من بينها الحرية والعدالة وذلك بسبب التدخل الهائل للبعد العاطفي في التعامل مع الموت والقمع والهدم والسجن وغير ذلك من الاخطار المحدقة بالفلسطيني، وما أدى اليه ذلك - كما يقول سري نسيبة - من تداخل مع البناء الثقافي. إن كل ذلك قد وضعنا في

(الخاتمة ص ١٨)

دفاتر الأيام

دائرة كره شديد لما مثلته الصهيونية من احتلال طويل وظلم أطول، لكن اختيارنا لاستراتيجية السلام يضعنا في مقابلة شديدة التباين مع ذات المعاني السابقة: أين سنمضي بمفهومي الحرية والعدالة ضمن الاشتراكات الاخلاقية التي لا تسمح لنا بتعدد الموازين حتى ولو قبل بها الآخرون؟ إن الكتاب - في استنتاجه النهائي وفي اعتقادي يتكلم عن ضرورة وجود الخطاب الواحد الذي لا يعرف التلون والتعدد لأن الحرية والعدالة مطلوبتان في «الحد والمطلق» كي يرضى قلب الانسان عن نبله وسلامة مبررات وجوده. الكتاب يعادله فقط هذا الاحساس بالصدق والعمق والانتماء الانساني الشامل والتفوق على الذات الذي يمارسه الكاتب في كل مراحل حياته، وما عدا ذلك فلا بدّ من قراءته كوثيقة مهمة للآن والمستقبل.